رواية الغريب لألبير كامي من الرواية إلى الفيلم

أ.كريمة ناوي

جامعة الجلفة

يعتبر –آلبير كامي–من أهم الكتاب الفرنسيين مواليد الجزائر الذي حاول أن يقترب منها، لكنها ظلت بالنسبة إليه أرضا فرنسية. إنها فقط طبيعة جميلة، وهو قد عبر عن ذلك في روايته–Noces أعراس –بقوله:"إن الحب الذي نتبادله مع مدينة، هو على الأغلب حب سري. إن مدنا كباريس، براغ... هي مدن منغلقة على نفسها وتحدد بالتالي العالم الخاص بها، لكن الجزائر مع بعض الأوساط الممتازة كالمدن على البحر، تنفتح في السماء مثل فم أو جرح، وما قد تحبه في الجزائر هو ما يعيش منه جميع الناس. البحر عند منعطف كل شارع"[1]. إنها الجزائر التي عشقها الشعراء وعشقها–كامي– لكنه ظل غريبا عن ظروفها لأنها لم تكن إلا مدينة فرنسية وعلى فرنسا أن تواصل حمايتها لممتلكاتها.

إن الدارس لأدب–كامي– يمكنه أن يضعه في الموازاة مع أدب جزائري مكتوب باللغة ذاتها. لكن أدبه يظل أدبا استعماريا حاول أن يرسم من خلاله صورة الآخر(المستعمر). ومنه جاء التعبير عن المستعمر عنده وعند أمثاله مختلفا عن أدب أولئك الكتاب المغاربة عموما والجزائريين خصوصا. فقد ظلت الصورة عند الطرف الأول توسّعية استعمارية وكانت في عيني الطرف الثاني تحررية وثائرة.

«**ألبير كامي» وفلسفة العبث:** قبل دخول عالم –آلبير كامي–الروائي، لابد من ولوج عالمه الفلسفي لتتضح صورته. فقد ارتبط اسمه بفلسفة العبث. هذه الفلسفة التي سادت أوروبا عموما وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، التي قضت على كل ما هو جميل في الإنسان وشوهت معنى الوجود في عينيه، انطلاقا من تأثيرها عليه اجتماعيا واقتصاديا وإنسانيا.

ومن هنا فإن هذه الفلسفة قد شكلت عوالم –كامي– وأثرت في مساره الإبداعي وحتى الحياتي. ولا شك أن قارئ روايته –الغريب– والمتأمل في بطلها –ميرسو– يلاحظ مدى تشبعه بفلسفة الكاتب وبآرائه في هذا المجال. فميرسو شخص غريب. . ووحيد. . لا تربطه مشاعر قوية حتى بأقرب الناس إليه.

تناولت الدراسات التي تجاوزت 1300 دراسة، أعمال –كامي– المختلفة، وخاضت حتى في كل أعماله محاولة تفسير آرائه الفلسفية خاصة المتعلقة بعبث العالم أو العالم بدون اله ،إضافة إلى تأثير الفكر المسيحي في آرائه هذه.

يقوم فكر –كامي– على نقطتين أساسيتين هما: العبث L'absurde والتمرد La révolte. وقد تأخذ إحداهما مكان الأخرى. فقد أكد ذلك بقوله: "يمكن الحكم على معنى العبث بأنه يشكل بدايات تفكيري. . التفرد المعطى بالنسبة لي هو العبث"[2]. وبعد عشر سنوات أو أكثر عاد –كامي– ليؤكد نفس ما قاله عن التمرد. لقد لعب العبث دورا كبيرا في تشكيل الوجود الميتافيزيقي لكامي.

إن عبث العالم وفراغ الحياة من أية مشاعر ومعنى وهذه الغربة التي يعانيها الإنسان حتى في عالم كان يعتقده عائلته، هو ما شكل فكر –آلبير كامي– الفلسفي كما انبنت عليه أعماله الأدبية التي حملت صبغة فلسفية كعمله–أسطورة سيزيف– التي حملت الكثير من المعاني. غير أن أكثر ما عبر عن أفكاره هذه هي روايته الشهيرة – الغريب– التي جسد فيها ومن خلال بطله–ميرسو– قمة الغربة التي يشعر بها الإنسان مما جعل كل الذين ق رأوا الرواية ينفرون من –ميرسو–ويرون فيه شخصا غريبا وخارجا عن مظاهر المجتمع.

«ألبير كامي».. وروايته الغريب: صدرت رواية – L'étranger–أو –الغريب–كما ترجمت عام 1943. وشدت إليها النقاد والباحثين انطلاقا من الموضوع الذي طرحته وهي رواية تحمل الكثير من المعاني رغم افتقادها للعواطف بحسب الدارسين لها. وتقع في جزئين. يحوي الجزء الأول ستة فصول ويحوي الجزء الثاني خمسة فصول.

تقوم الرواية على شخصية محورية ممثلة في البطل الذي يروي أحداثها– ميرسو Meursault–. شاب في الثلاثينات من العمر لا أحد له إلا والدته. وتبدأ الرواية

من النهاية، من لحظة الموت، موت والدته –فيقول –ميرسو–: "ماتت أمي اليوم. وربما أمس لا أدري. لقد تلقيت من الملجأ الذي تقيم فيه برقية هذا نصها: أمكم توفيت. الدفن غدا. أخلص تعازينا. ولم أستطع أن أفهم شيئا.. ربما قد تكون توفيت أمس"[3]. ومن هنا تبدأ أحداث رواية الأحاسيس الجامدة كما وصفها جل الدارسين. وبهذا الخبر المفاجئ الذي يتلقاه–ميرسو– من الملجأ حيث كان قد وضع والدته لأنه لم يكن يمتلك لا الوقت ولا المال للاهتمام بها.

وهكذا يشرع –ميرسو–في رواية الأحداث التي بدأت بتفكيره في أن يستقل صباحا الأتوبيس إلى –مارينجو–حيث هو الملجأ. و–مارينجو– بلدة قرب الجزائر العاصمة يستغرق الوصول إليها بالحافلة قرابة الساعتين. وإذا كان من المفروض أن والدته قد توفيت فإنه لم يشعر بأي نوع من الحزن، بل لا يظهر عليه حتى التأثر لهذا الموت المفاجئ إذ يتوقف في الطريق ليتناول طعامه كما هي عادته كلما زار والدته في الملجأ "ركبت الأتوبيس في الثانية وكان الجو حارا شديد القيظ. وكنت قد تناولت الطعام عند سيلست كما هي العادة. وكان جميع من في المطعم متألمين لمصابي... وكنت مذهولا بعض الشيء لأنه كان ينبغي أن اذهب إلى عمانويل لأستعير منه رباط عنق أسود وشارة للحداد أضعها فوق ذراعي"[4]. فهو لم يشعر بأهمية لما أصابه حتى أنه نام طيلة الطريق إلى –مارينجو–. وحين وصوله تحدث مع المدير ثم يتذكر أنه طيلة السنة الماضية لم يزر والدته ولا لمرة واحدة "وربما كان هذا هو السبب في أني لم أذهب لزيارتها في خلال العام الأخير ولو مرة. وهناك سبب آخر، هو أن هذا كان سيضيع مني يوم الأحد بالإضافة إلى الجهد الذي أبذله في السفر بالأتوبيس وشراء تذكرتين وساعتان تضيعان في الطريق"[5]. ولهذه الأسباب يذكر –ميرسو–أنه لم يفكر في زيارة أمه.

إن العلاقة بينهما مفصومة منذ البداية فلا غرابة إذا تواصلت تلك المشاعر الباردة وتلك اللامبالاة. فهو لم يشأ أن يراها للمرة الأخيرة حين وصل إلى غرفة حفظ الجثث حيث كان يحتفظ بجثتها". . قال لي وهو يتلعثم: لقد غطيناها، ولكن يجب أن أفك المسامير لكي تراها. وتقدم نحو التابوت ولكني منعته. فسألني: ألا تريد أن تراها؟ فقلت:

لا. وتوقف وشعرت بالضيق لأني أحسست بأنه لم يكن ينبغي أن أقول ذلك"[6]. لكنه لم يتدارك الأمر ولم ير والدته، بل يتواصل شعور اللامبالاة والعودة إلى عاداته التي يحب فحين يعرض عليه البواب القهوة لا ينسى أن يصفها بقوله: "وحينئذ عرض أن يحضر لي قدحا من قهوة ممزوجة باللبن. ولما كنت أحب كثيرا القهوة الممزوجة باللبن فقد وافقت. وبعد قليل عاد ومعه صينية وشربت القهوة وشعرت برغبة في تدخين سيجارة ولكني ترددت لأني لم أكن أدري إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمي. وفكرت قليلا، ووجدت أنه ليس في الأمر ما يهم. وقدمت سيجارة للبواب وأخذنا ندخن معا"[7].

انه مفتون بوصف المناظر الجميلة من طبيعة وبيوت وهواء والتي تحف بها مارينجو وكأنه لا يحمل أمه في التابوت. وتنتهي مغامرته بدفن أمه وعودته إلى العاصمة دون أن يظهر لنا حزنه أو ألمه بل يقول: "كما أذكر ابتهاجي حينما عاد بي الأتوبيس إلى مدينة الجزائر حيث استقبلتني أنوارها الساطعة وقد استحوذت علي حينئذ فكرة واحدة: هي أن أذهب لأنام اثنتي عشرة ساعة"[8].

وهكذا عاد –ميرسو–إلى ممارسة حياته اليومية وكأن شيئا لم يحدث. عاد ليستأنف ما كان يقوم به قبل موت والدته. فقد استيقظ صباحا بعد دفنه لأمه بالأمس ليذهب إلى الشاطئ ويسبح ويداعب الفتاة التي كان معجبا بها وحتى حين تتفاجأ بموت والدته يحاول أن يبرر لها بأنه ليس ذنبه أن أمه قد توفيت بالأمس. وبعد عودتهما من السينما ترافقه إلى بيته ويقضيان الليلة معا. ليكتشف بعد نهاية الأحد وهو يوم عطلته "وخطر في ذهني حينئذ أن هذا يوم أحد متعب، وأن أمي قد تم دفنها، وأني سأستأنف عملي غدا، وأن شيئا لم يتغير"[9]. إنها قمة عبثية الحياة التي لا تتوقف سواء كان الحزن كبيرا أم لم يكن أصلا.

يعود–ميرسو–إلى روتين أيامه بين عمله بالمكتب والذهاب إلى السينما ورؤية –ماري–. ولا شيء يتغير في مشاعره. إنها مشاعر مبهمة، وهو لا يعرف إن كانت موجودة أصلا، وهل تعني شيئا.. انه يعيش الحياة دون أن يدري إذا كان يعيش وما معنى حياته. وحين سأله مديره عما إذا كان ينوي تغيير حياته أجاب" وحينئذ سألني عما

إذا كنت غير راغب في تغيير حياتي. فقلت له إن الإنسان لا يغير حياته مطلقا، وأن جميع أنواع الحياة تتساوى على أية حال.

لا يحدث شيء جديد في حياة – ميرسو –غير لقائه بجاريه –سالامانو–العجوز و– ريمون – الذي يتردد على منزله ويشاركه رحلته على الشاطئ . الرحلة التي يرتكب فيها الجريمة بسبب الشمس. الشمس التي يكرهها والتي يتكرر الحديث عنها في الرواية "كانت أشعة الشمس تسقط في اتجاه رأسي على الرمال وكان بريقها لا يكاد يحتمل". "وكانت الشمس قاسية وكانت أشعتها الملتهبة تتكسر على الرمال وعلى البحر"[10].

لقد انضم –ميرسو– إلى –ريمون– وصديقه في جولة على الشاطئ . وكان – ريمون – قد أخبره عن مشادة وقعت بينه وبين شاب عربي كان – ريمون –على علاقة بأخته. وقد لحق به الشاب ورفيقه إلى الشاطئ . لم يكن في نيته أن يطلق النار، كما راوده إحساس بأنه يمكن إطلاق النار أو عدم إطلاقها وكان ضد ذلك حين طلب منه– ريمون – أن يفعل". . وأردفت قائلا: ولكن إذا لم يخرج مديته، فليس من حقك أن تطلق النار.. وراودني حينئذ إحساس بأنه من الممكن إطلاق النار كما أنه من الممكن عدم إطلاقه"[11].

لقد ذهب في جولة انتهت بارتكابه لجريمة قتل. فقد أعطاه – ريمون – المسدس واحتفظ به في جيبه. عاد –ريمون – إلى بيت صديقه، أما هو فقد عاد إلى الشاطئ وهناك التقى بالشاب العربي الذي وقع بينه وبين صديقه–ريمون–المشادة. كانت الشمس قاسية جدا. وبسبب هذه الشمس الحارقة، تهيأ له السكين الذي كان يحمله العربي عند النبع وكأنه سيف يلمع مما جعله يفقد السيطرة على أعصابه ويخرج المسدس "وتوتر كياني كله. وتقلصت يدي على المسدس. واستجاب الزناد للضغط ولمست إصبعي بطن المسدس المصقول. وارتفع صوت جاف وحاد في الوقت نفسه. وبدأت معه المأساة وأزحت العرق والشمس. وفهمت أني دمرت توازن اليوم والسكون الرائع للبلاج الذي كنت سعيدا فيه. وحينئذ أطلقت أربع رصاصات أخرى على الجسد المسجى الذي خمدت أنفاسه فنفذت فيه من غير أن يبدي حراكا. وكأنما كانت هذه الرصاصات أربع دقات قصيرة طرقت بها باب التعاسة والشؤم"[12].

حدثت الجريمة التي لم تكن متوقعة. حدثت صدفة كما قال –ميرسو– لأنه لم يكن في نيته أن يرتكب الجريمة التي لا علاقة له بها إلا من خلال صديقه–ريمون– الذي أخبره يوما أن صديقته تخونه وأن عليه أن يجد الدليل على خيانتها له.

قبض عليه مباشرة بعد ارتكابه للجريمة، وزج به في السجن وقد طلبت المحكمة منه أن يطلب محاميا و إلا ستكلف المحكمة محاميا بمتابعة قضيته. لكنه كان يؤكد أن قضيته بسيطة جدا ولا تستدعي وجود محام. وعين له بعد ذلك محاميا. لم يكن الأمر مهما بالنسبة إليه فقد ظل يهتم بتفاصيل لا تعنيه كاهتمامه بلباس المحامي والقاضي وغيرها من الأمور التي لا تهم.

وجد–ميرسو –نفسه متهما في قضايا لا علاقة لها بجريمته، فقد اهتمت المحكمة بسلوكاته أكثر من اهتمامها بارتكاب الجريمة وهو ما جعله يستغرب الأمر. يقول: "وعلم المحققون من البحث الذي قاموا به في بلدة مارينجو أني أظهرت عدم مبالاة يوم دفنت أمي... وقلت أني كنت أحب أمي من غير شك ولكن هذا لا يهم. وكل الأشخاص العاقلين يتمنون إن كثيرا أو قليلا موت هؤلاء الذين يحبونهم. وهنا قاطعني المحامي وبدا عليه اضطراب شديد ... غير أني أوضحت له أن من طبعي أن حاجاتي الجسمانية تعرقل كثيرا مشاعري. وفي اليوم الذي دفنت فيه أمي كنت متعبا جدا،وكان النوم يسيطر علي إلى درجة أني لم أنتبه إلى ما كان يحدث والشيء الذي أستطيع أن أؤكده هو أني كنت أفضل ألا تموت أمي"[13]. إن المحامي لم يستطع أن يفهم مشاعر موكله التي بدت له غريبة لأنه لم يستطع أن يكبح جماح رغباته الطبيعية يوم وفاة والدته.

كان يشعر برغبة في أن يستبقيه معه وأن يضمه لكنه لم يستطع ذلك ويستمر – ميرسو– في سجنه واستجوابه عن إطلاقه الرصاصات الأربع بعد الرصاصة الأولى التي قتلت الشاب العربي. ولم يجد إجابة لأنه لم يكن يعرف. ويستمر المحقق في استجوابه عن ديانته ويخبره –ميرسو–أنه لا يؤمن بشيء. أو انه لم يفكر في هذا. يعود المحقق ليخبره بأن حتى الذين يدعون أنهم لا يؤمنون بالله هم يؤمنون به وانه عليه أن يسلم أمره لله.

يتواصل حبسه وقد جعلت أفكاره المحقق يستغرب تصرفاته وأنه للمرة الأولى يصادف شخصا غير نادم على ارتكابه لجريمته. وحين يسأله فيما إذا كان يشعر بالندم يجيب –ميرسو–بأنه لا يشعر بالندم ولكن ببعض المضايقة.

يستجوب كل الذين عرفوه كصديقه ريمون– و–ماري– وسالامانو– وحتى صديق أمه في الملجأ ومدير الملجأ والبواب، وقد شهد كل عمال الملجأ بغرابة تصرفاته وأنه لم يكن يزور أمه في الملجأ وأنه رفض فتح الصندوق ليلقي عليها النظرة الأخيرة وأنه ذهب مع صديقته إلى السينما في اليوم الموالي لدفن والدته ونام معها. وقد استغربت المحكمة كل تصرفاته وبدا لها شخصا غريبا.

تواصلت محاكمة –ميرسو– بعدها وتواصل سجنه. لكن الغريب أن كل التحقيقات معه وكل المحاولات لجعله يشعر بالندم لم تغير في موقفه شيئا. لقد أصبح كل شيء بالنسبة إليه عاديا، فطوال إحدى عشرة شهرا التي كان يحقق معه فيها لم تؤثر فيه وجعلته يشعر أنه صار جزءا من عائلة المحققين والقضاة والمحامين. لقد تحولت قضيته إلى قضية ملأت بها الصحف يومياتها خاصة أنها كانت في فصل الصيف، هكذا أخبره الصحفي الذي قدم من –باريس– ليغطي خبر يشبه خبره وقد أضيفت قضيته إلى الصحافة فقط للترفيه لا لأهميتها.

وخلال هذه الفترة، زارته – ماري – مرة واحدة مؤكدة له أنه سيخرج وأنهما سيتزوجان بلا شك. لكنه لم يشعر بغربة في السجن بل كان يشعر وكأنه في بيته ولكن حياته قد توقفت. إن الشيء الوحيد الذي كان يزعجه كيف يمضي الوقت. واستطاع أن يجد حلا لذلك عن طريق الذكريات. فقد قرر أن يستعيد كل ما كان في غرفته حين كان طليقا. وأقنع نفسه بذلك "وأدركت حينئذ أنه إذا عاش رجل يوما واحدا في العالم الطليق، فإنه بعد ذلك يستطيع أن يعيش في السجن من غير صعوبة مائة عام وأن يستعيد فيه من الذكريات ما يتيح له التغلب على مشاعر الضيق والتبرم وهذا يعتبر ميزة إلى حد ما"[14].

هكذا وجد–ميرسو–حلولا لتمضية الوقت وللنوم وللسجائر الممنوعة فقط لكي يعود نفسه على جو السجن الجديد، مع أنه كان يزعجه لم لا يسمح له مثلا بأن يحصل على

السجائر مادام ذلك لا يضر بأحد ،وعرف بعدها أن ذلك جزء من العقاب. تواصلت أيامه المتشابهة وقد عثر على قصاصة ورق تحوي قصة فقرأها. إنها تطرح مشكلة سوء فهم بين أم وابنتها تسببتا في قتل ابنها دون أن تعرف بأنه ابنها. وهكذا استطاع من خلالها أن يمضي الوقت بتذكرها وتخيلها. (هي رواية «ألبير كامي» التي كتبها لاحقا بعنوان سوء فهم Le Malentendu).

وانطلاقا من هذا الوضع فقد تساوت كل الأشياء عنه . فقد الزمن معناه ولم يعد يفرق بين الأيام لأنها صورة واحدة عن بعضها. ومرت أيامه بين الزنزانة وجلسات المحكمة. دون أن يتغير شيء في شهادة الشهود الذين أكدوا كلهم غرابة تصرفاته. ولم يعلق على شيء فقد كان يعتقد بصدقهم في كل ما قالوه لكنه يؤكد أنه يحب أمه وأنه تمنى لو أنها لم تمت.

تتلاشى غرابة –ميرسو– قليلا حين رأى صديقه –سيلست– صاحب المطعم حين جاء ليدلي بشهادته. فقد شعر برغبة في احتضانه "ولكنها كانت أول مرة في حياتي أشعر فيها بالرغبة في أن أعانق رجلا" وهكذا حاول الشهود وخاصة منهم–ماري–و–ريمون–و–سالامانو– أن يؤكدوا أن–ميرسو– رجل طيب وأنه وضع أمه في الملجأ فقط لأنه لم يجد ما يقوله لها ولكي يجنبها الملل. لكن أحدا لم يستمع إليهم وأكد المدعي العام "سادتي المحلفين. غداة اليوم الذي ماتت فيه أمه، ذهب هذا السيد للاستحمام. وبدأ علاقة غير مشروعة ذهب لكي يضحك أمام فيلم هزلي. وليس لدي ما أقوله أكثر من هذا [15].

تأكد للمحكمة خلال فترة الاستجواب أن –ميرسو– ذا سلوك شاذ وغريب. وظل يؤكد أنه ارتكب جريمته بمحض الصدفة وأنه لا يربطه بالشاب العربي أية علاقة. وكان يشعر بسعادة والآخرون يتكلمون عنه رغم استغرابه من أن الحديث كان عنه أكثر منه عن الجريمة.

ومن خلال كل الجلسات تأكد للمحكمة أنه ارتكب جريمته متعمدا وأنه لا يمكن أن يكون قد خطط لذلك. وأنه لم يشعر بلحظة ندم واحدة طيلة كل هذه الفترة، وأن كل المحاولات في جعله يتراجع أو يندم لم تجد نفعا. لقد كان مقتنعا بأن كل ما قيل عنه صحيح، وقد حاول

أن يقنع المدعي العام "وقد أردت أن أبذل محاولة لكي أشرح له بطريقة عادية بل بالأحرى بطريقة ودية أنه لم يكن في استطاعتي مطلقا أن أندم على أي شيء فقد كنت دوما مأخوذا بما سوف يحدث . . بما سوف يحدث اليوم أوغدا. . "[16]. إن المدعي العام توصل إلى أن هذا الشخص ليس غريبا فقط بل قال أنه في الواقع ليس عنده روح، أو أي شعور إنساني، أي مبدأ من المبادئ الخلقية التي تحرس نفوس الناس، وقد اعترف المدعي العام أنه غير ملام في ذلك لأنهم لا يمكن أن يمنحوه ما لم يستطع أن يحصل عليه. وأن مثل هذا الرجل وصمة في جبين المجتمع ويجب أن تأخذ العدالة مجراها.

يرفض–ميرسو– ولأكثر من ثلاث مرات استقبال الكاهن الذي جيء به إليه لكي يعترف. وأكد أنه لم يؤمن بشيء اسمه إله طيلة حياته،وأنه لا يملك شيئا ليقوله. ولم يبق أمامه إلا انتظار الحكم الذي سينطق في حقه بعد كل هذه الجلسات وتلك التحقيقات، والتي أكدت كلها على غرابة هذا الكائن الذي بلا روح والذي يجب أن يطهر المجتمع من أمثاله.

وأخيرا، تأكدت التهمة على–ميرسو–، وقد كانت التهمة متعلقة بغرابة تصرفاته أكثر من جريمة القتل التي ارتكبها وحكم عليه بالإعدام ولم ير من الذين حوله إلا الاحترام على حد ما شعر به" وكان الحراس في غاية الرقة والوداعة معي. ووضع المحامي يده على معصمي. ولم أعد أفكر في شيء. ولكن الرئيس سألني عما إذا كنت أريد أن أقول شيئا. وفكرت قليلا ثم قلت: لا"[17]. لكن الذي حدث بعد ذلك أن –ميرسو– الإنسان الضعيف قد استيقظ في داخله بعد معرفته بأن رأسه سيقطع في ميدان عام.

إنه الخوف الذي يشعر به أي إنسان مقبل على الموت أي كان نوع هذا الموت: هل هناك ما يمكن أن يخيف الإنسان من شيء قادم نحوه ليأخذ أغلى ما عنده: حياته؟.

ويفكر في الذين مروا بهذه التجربة. تجربة الإعدام. هل تمكن أحدهم من تغيير مصيره؟" .. وأن المصادفة أو الحظ قد غيرا مجرى الأمور ولو مرة واحدة؟. لكنه لم يفكر في هذه الاحتمالات، بل ما كان يشغله هو البحث عن طريقة ما يمكنها أن تخلصه مما ينتظره". . ولكن الذي كان يشغل بالي هو البحث عن وسيلة للفرار. عن وثبة تنقلني عبر الطريق الذي رسم لي. عن رحلة إلى الجنون تهيئ لي جميع فرص الأمل. وبطبيعة

الحال لم يكن ثمة أمل إلا في أن تزهق روحي في أحد أركان الشوارع وأنا اجري هاربا بإحدى الرصاصات التي تنطلق حينئذ نحوي. ولكن بعد التفكير في كل الاحتمالات وجدت أنه محظور علي الحصول على هذا الترف، وأن المقصلة هي التي ستأخذ أجلي"[18].

يستسلم –ميرسو–أثناء هذه الفترة التي تلت تأكيد حكم الإعدام فيه إلى مجموعة من الأفكار. يتعلق بعضها بالقوانين والنظم والقرارات. ويؤكد على أن أبشع ما يمكن أن يتعرض له الإنسان عقوبة الإعدام. غير أنه يدرك أن هذه الأمنية لا يمكن أن تتحقق ليجد نفسه خارج الأسوار والحراس. ويعتقد أن الإنسان يأمل دوما بل ويتوهم . فقد توهم هو يوما وتمنى لو أنه يصدر قانونا يمنح المحكوم عليه بالإعدام فرصة ولو بنسبة واحد في الألف لأن الأمور قد تتغير ساعتها. لكنه عاد لاستئناف الأيام المتبقية على تنفيذ الحكم. وقد كانت أياما صعب عليه تحملها لأنها لا تحمل إلا التعاسة والخوف والانتظار. ولا شك أنه ليس هناك أصعب من أن ينتظر الإنسان تنفيذ حكم الإعدام فيه.

وهنا تظهر مشاعر –ميرسو– التي حاول طيلة الوقت الماضي أن يخفيها، إنها مشاعر الضعف والقلق الذي يعيشه الإنسان المعرض لوقف كهذا. مشاعر التمسك بالأمل وبالحياة ولو بربح أربع وعشرين ساعة إضافية. إنه الأمل في يوم آخر.

يحاول–ميرسو–أن يتمسك بالحياة إلى آخر لحظة مفكرا في الاستئناف وأنه قد يحصل على العفو. ولكنه يتأكد أن ذلك لن يحصل أبدا وأنه لم يبق له إلا وقت قليل. ومرة أخرى يأتيه ويحدثه هذه المرة. ويسأل عن سبب الزيارة لأنها جاءت في توقيت غريب بعد الحكم عليه. ولكنه لا يستمع إلى ما يقوله له الكاهن، ويصر على أنه ليس في حاجة إلى دعائه "فأراد أن يتكلم معي مرة أخرى عن الله ولكني تقدمت نحوه وحاولت أن أفهمه أنه لم يعد أمامي سوى وقت قليل لا أريد أن أضيعه مع الله.[19]. هي المكابرة في اللحظة الأخيرة التي يصر عليها بعد أن صار موته مؤكدا. فلا شيء عنده يبوح به أو يندم عليه بعد أن صار الموت أقرب إليه من كل شيء.

إنها النهاية التي باتت أكيدة. وهنا يؤكد–ميرسو– حقيقة الحياة التي ليس لها معنى مادام الموت سيختمها، إنه عبث الحياة برأي–ميرسو– مادام كل شيء بلا معنى.

ومادام كل الناس مذنبون وكلهم سيموتون. كانت هذه صرخات –ميرسو– الأخيرة في وجه القسيس وفي وجه الحياة. شعر بعدها بأنه تطهر من كل شروره ولم يبق أمامه إلا شيء واحد. "ولكي ينتهي كل شيء على ما يرام ولكي لا أشعر بكثير من الوحدة لم يعد أمامي إلا أن أتمنى أن يحضر متفرجون كثيرون يوم تنفيذ الحكم بإعدامي وأن يستقبلوني بصيحات الكراهية"[20].

هكذا كانت نهاية –ميرسو–ونهاية رواية –الغريب– لآلبير كامي. الرواية التي أثارت الكثير من التساؤلات مست حتى –كامي–الإنسان ومدى إيمانه .

رواية الغريب في أعين النقاد: اهتم الدارسون بالرواية وحاولوا الاقتراب من عوالم –كامي– السرية من خلال بطل روايته–ميرسو–. وماتزال هذه الرواية تحتل مكانة هامة في الأدب ككل. إنها نموذج بشري خالد، اكتسب خلوده من جو الغرابة الذي وضعه في الروائي. فهل كان بالفعل–ميرسو–هو نفسه–كامي–؟ أم هي فقط تفسيرات النقاد وقراءاتهم؟.

يعتبر الشاعر الجزائري/الفرنسي–جون سيناك– من الذين اهتموا بهذه الرواية كثيرا. و–جون سيناك– شاعر جزائري /فرنسي. فضل أن يظل بالجزائر بعد الاستقلال. جمعت صداقة قوية بين–سيناك–و–كامي– وكان أن كتب –سيناك– دراستين هامتين حول هذه الرواية الشهيرة لكامي–وجاءت الدراستان تحت عنوان:

Notes sur L'étranger d'Albert Camus و– Notes complémentaires sur L'étranger d'Albert Camus وما تزال دراستا –سيناك– تحافظان على أهميتهما من حيث مدى ما عبرتا عنه وما ورد فيهما. وقد رأى–سيناك–أن أعمال –آلبير كامي– الثلاثة– L'envers et L'endroit ذهاب وإياب – و– Noces أعراس –و– L'exil et le royaume المنفى والمملكة– تضيء بعض معالم شخصية –ميرسو–الرئيسية في – الغريب–"هذه النصوص الثلاثة توضح بعض المعالم من ميرسو، تحديدا ما يتعلق بشخصيته المقدمة على براءته، يعني صدقه، بساطته ورفضه للأكاذيب. الشمس والبحر هم –ممثلون–، يمنحون حقيقتهم للشخصيات التي بين البؤس والشمس"[21].. انه –

ميرسو–، – كامي– الذي تورط في الأحداث صدفة ليؤسس عالما من اللامبالاة والعبثية.

إن–ميرسو–حسب الشاعر–سيناك– ليس فقط رمزا يمثل المجتمع الأوروبي، ولكنه شخصية حقيقية وهنا يشير–سيناك– إلى ما قاله – كامي–: "ثلاث شخصيات تدخل في تركيب الغريب: رجلين (بما فيهم أنا) وامرأة"[22]. هو شخصية أعطت تصورا استعماريا. وهكذا فإن –سيناك– رأى في شخصية–ميرسو–الذي لم يشعر بالندم بعد إقدامه على قتل العربي ولم يجد الشاعر إلا أنه "ليس هناك ما يظهر في اسم ميرسو إلا الموت والشمس"[23].

يؤكد–سيناك–أن العرب وفي كل أعمال –كامي– المختلفة"مجرد أشكال ثابتة، غير محددين، صامتون، بلا أسماء"[24]. ولعل رواية–الغريب–تظهر ذلك إذ أن العربي الذي ارتكبت في حقه الجريمة بسبب الشمس التي أثرت على –ميرسو–، لم يهتم به الروائي على الإطلاق. لقد ظل–كامي– يعتبر الحديث عن العرب أو الجزائريين خارج اهتمامه وأنه على الكتاب الجزائريون أنفسهم أن يفعلوا ذلك.

وهكذا فإن رواية الغريب طرحت العديد من أفكار–كامي– كحديثه عن عقوبة الإعدام التي طالما طالب بإلغائها. كما عبرت عن حيرته تجاه الدين ومدى أهميته في حياة الإنسان.

فلماذا اعتبر النقاد –ميرسو–شخصية غريبة؟ وتصرفاتها غير طبيعية؟.

إن المتصفح للرواية والمتعمق في شخصية –ميرسو– يكتشف أنها شخصية يمكننا أن نصادفها يوميا وأنها لا تختلف عن الآخرين. فهو نموذج من الناس، قد يبدو للوهلة الأولى غريب الطباع لكنه في حقيقته شخص عادي يحب ويتمنى ويبكي مثل الجميع. وان كانت رغباته تهزم مشاعره في الكثير من الأحيان فإن ذلك لا يلغي إنسانيته. هو شخصية مكابرة ولا مبالية وباردة الإحساس لكنها لاتفتقده نهائيا. لقد كان بعيدا عن الحقيقة الوحيدة في حياته(الموت) ولكنه حين صار هذا الموت مؤكدا تبدلت مشاعره وتحولت اللامبالاة إلى خوف كبير.

وقد أبدع –كامي– في تصوير لحظات قلقه وتنصته لكل حركة خوفا من قدوم الحراس لأخذه إلى المقصلة وكان فرحه شديدا كلما صحا في الصباح ليجد نفسه مازال حيا. ولعل هذه اللحظات التي عاشها–ميرسو–في آخر الرواية تعيده إلى طبيعته العادية وتزيل غرابته ولامبالاته. بل إن المبالاة التي كان يعيشها كانت مزورة لأنه كان بعيدا عن الموت بطريقة جدية. في هذه اللحظة تزول الغرابة ويظهر الضعف الطبيعي في الإنسان.

إن رواية–الغريب– بمفهومها العام، محاولة للغوص في الجانب الخفي من الإنسان. إنها وبرغم ما كل ما قيل عنها رواية عميقة، استطاعت أن تكشف عما يمكن للإنسان أن يخفيه. ولعل ما جعلها تتسم بالغرابة أن بطلها –ميرسو– كان أشجع منا ليقول ما في داخله ولم يختبئ خلف شعارات في الكثير من الأحيان نرددها لكننا لا نقوم بها. إن –كامي–استطاع بحق أن يتسرب وبذكاء كبير إلى أعماقنا وما يجول فيها من خلال–ميرسو–الذي وبرغم جريمته وتصرفاته إلا يستحق العطف .

إن رواية– الغريب – التي شكلت ردود الأفعال المستنكرة لسلوكات بطلها، هي أكثر تعبير عن واقع الإنسان اليوم بعد أن فقد الكثير من الجمال والكثير من المشاعر. فهل هي الحرب التي كانت من دوافع ظهور ذاك النوع من الأدب المعروف بالعبث أم هي طبيعة الإنسان أن يقتل كل الأشياء الجميلة في عالمه ويستمتع بخرابه؟. إن الغريب لم يعد غريبا في زمننا الحاضر.

فيسكونتي والغريب. . من الرواية إلى الفيلم: قدم المخرج الايطالي الكبير – لوتشيانو فيسكونتي–عام 1967 أي بعد وفاة –آلبير كامي– بسنوات قليلة، إلى – الجزائر– بين نوفمبر1966و فيفري 1967 وهي فترة تصوير الفيلم. وقد ورد الفيلم من بين ما قدمه الإنتاج السينمائي الجزائري حيث يرد التعريف به" الاقتباس من كتاب آلبير كامو يحمل نفس العنوان. اغتال مارصو جزائريا بسبب–الشمس– ويقف أمام المحكمة متهما على الخصوص بسلوكه المنافي للنظام الاجتماعي أثناء دفن والدته. المحلفون يقررون –إقصاءه عن المجتمع–ويطالبون بتوقيع عقوبة الإعدام عليه. يستسلم مارصو

وهو داخل زنزانته في انتظار تنفيذ الحكم إلى أفكار فلسفية حول الوجود. هذا هو الموضوع الرئيسي للفيلم"[25].

يبدأ الفيلم كما بدأت الرواية بحدث غير عادي يستقبله–ميرسو–أو –ماستروياني– في برقية تصل من الملجأ حيث وضع أمه لإخباره بموتها. وقد ظهرت المشاهد الأولى إذ تم تصويرها ببيت الروائي–آلبير كامي– بحي –بلكور– بالعاصمة الجزائرية. يتلقى الخبر بشعور عادي لا حزن فيه ولا تحسر، ومن هنا يبدأ الفيلم وتبدأ حكاية–ميرسو–. إذ يظهر في صورة رجل لامبالي، بارد المشاعر لا يهتز للحادث الأليم . لم يذرف دمعا ولم يلق نظرته الأخيرة على والدته أثناء تواجده بالملجأ حيث ذهب لدفنها. يركض صباحا خلف –الأتوبيس– ليقله إلى–مارنجو– حيث جثمان والدته. وبعد الدفن يعود مباشرة إلى بيته ليدخن ويأكل. وهو ما شكل نظرة الارتياب والغرابة للمحيطين به. ولم يكتف بهذا فقد التقى ب–ماري–أو–آنا كارينا– في الفيلم والتي كان معجبا بها، لترافقه إلى السينما في اليوم الثاني من عودته بعد دفن أمه ومرافقتها له إلى بيته وقضاء الليلة معا.

وبعد فترة يرتكب –ميرسو– جريمة قتل في حق جزائري اثر صدام بينهما وقد لعبت شمس –الجزائر– دورا هاما في كونها أصبحت بطلا ثانيا في الفيلم بعد أن أكد المتهم أن الشمس هي التي جعلته يفقد سيطرته ويطلق الرصاصات الأربع على الجزائري.

يقف–ميرسو– بعد ذلك في قاعة المحكمة وتأخذ قضيته بعدا آخر، إذ تركز المحكمة على سلوكاته التي رأتها منافية لقيم المجتمع بعد أن شهد عمال الملجأ وغيرهم بهذه السلوكات يوم دفن والدته. وتحكم المحكمة عليه بالإعدام. وفي انتظار تنفيذ هذا الحكم يتحدث–ميرسو–عن بعض القضايا تتعلق كلها بوجوده الإنساني والغاية منه وعقوبة الإعدام وأهمية الحياة والأشياء والناس مادام الموت سيأتي ليختم كل شيء. وهذه فكرة–كامي– دوما. . ما قيمة كل شيء إذا كان الموت سيختم كل شيء. فلا شيء له أهمية، لا الحب ولا الحلم ولا شيء أبدا. إن كل شيء أعطي لنا ليستعاد ثانية".. نحن محكومون بهذا العالم الميت والمحدود. . أو نحن نجري في الزمن. . أين كل شيء أعطي ليؤخذ. . حيث آثار الإنسان المثالية، الحب أيضا لا يقول، الكتب كذلك، الحياة نفسها لها نهاية. "[26].

لقد انتقلت الرواية من لغتها المكتوبة إلى اللغة المرئية أو الصورة دون أن تفقد شيئا من روحها أو تفرغ من محتواها. ومنه فإن المخرج استطاع أن يبقي على أفكار –كامي– وعلى ما صور به بطله–ميرسو– وظهر–ماسترويايي–متقمصا الدور بشكل جيد رغم الاختلاف الذي كان حول شخصية البطل ومن سيلعب دورها وكان قد رشح له الممثل – ترانتينيو– وهو الممثل الذي لعب دورا جميلا ممثلا في شخصية الجندي الفرنسي الذي يساعد –علي لابوانت– (سيد علي كويرات في أجمل أدواره السينمائية) في الهرب ويرافقه إلى الجبل في فيلم من إخراج –أحمد راشدي– ،–الأفيون والعصا والمأخوذ عن رواية بالعنوان نفسه للروائي–مولود معمري–) ثم اختير–ماسترويايي–للعب الدور. إضافة إلى –إبراهيم حجاج–في دور الشاب الجزائري الذي يقتله –ميرسو–.

وهكذا فقد حافظ الفيلم على الرواية شكلا ومضمونا، ويعود ذلك إلى أن السيدة – كامي– زوجة الكاتب قد طلبت من المخرج الحفاظ على الرواية كما هي ودون أدنى تغيير. وقد كان–فيسكونتي– ينوي أن يعطي للفيلم أهمية أكبر وأن يربطه بأحداث – الجزائر– آنذاك وخاصة على المستوى الثوري. وقد أكد الذين يفرقون بين الأدب والسينما على أن المخرج لو أخذ برؤيته كسينمائي لتمكن من صنع فيلم أكثر جمالا ،لأنه يبقى للسينما جمالها وخصوصيتها بعيدا عن النص الأدبي.

وقد أشار الشاعر والصديق لآلبير «ألبير كامي»–جون سيناك– والذي اهتم كثيرا بكل ما يتعلق ب» ألبير كامي» مؤكدا أن المخرج "حاول أن يكون قريبا في بعض نواحي الإخراج كاختيار شقة» ألبير كامي» ببلكور حيث نراها في المشاهد الأولى، أين نرى الممثل إبراهيم حجاج. ليأخذ دور العربي، كما صورت مشاهد الجريمة بشاطئ– زرالدة– قرب العاصمة–الجزائر–.

رؤية نقدية: حول إذن المخرج رواية –الغريب–إلى فيلم محافظا على كل ما جاء فيها. كما حوّل كل حركة وكل فكرة إلى صورة تنبض بالحياة. فيظهر – ماسترويايي–وكأنه–ميرسو– الموجود بالرواية، بلا مبالاته وبروده متحدثا عن أفكاره وهو في الزنزانة. ويظهر–إبراهيم حجاج–في صورة الجزائري على الشاطئ كما ظهر في

الرواية، وكانت–آنا كارينا–كما لو أنها –ماري– في الرواية جميلة ومغرية. ولكن الفيلم لم يحقق ما أراده مخرجه.

لقد أكد تاريخ السينما على أن الرواية من روافدها الهامة لما قدمته لها من نصوص صنعت مجدها . وما تزال تلك النجاحات العديدة لتلك الأفلام التي قامت على روايات ك:–ذهب مع الريح– لمرغريت ميتشل، و–آنا كارنينا–لتولستوي، و–عناقيد الغضب–لستاينبيك، و–غادة الكاميليا–لدوماس وغيرها من الأفلام الناجحة عالميا. ولكن الذي أكدته الدراسات أنه ليست كل رواية قابلة للأفلمة، وأن الرواية شيء والسينما شيء آخر. كما أنه من حق المخرج أن يفرض رؤيته في الفيلم، لأنه قد يضحي ببعض الأدب لصنع فيلم جيد وهنا يقول المخرج السوري–نبيل المالح– بأن "خيانة النص الأدبي تؤدي أحيانا إلى صنع فيلم ناجح"[27]. فهل ساهم اقتباس الرواية كما هي السينما في إفشال الفيلم؟.

اعترف مخرج الفيلم–لوتشيانو فيسكونتي– بفشل الفيلم وأنه لم يكن فيلما مهما رغم إنتاجه الغزير الذي قدمه طيلة عمله السينمائي. فرغم الممثلون الكبار على غرار– ماسترويواني– الذي كان آنذاك من أشهر الوجوه السينمائية ورغم ميزانيته إلا أن الفيلم لم يلق الإقبال المنتظر والمعهود لكل أفلام–فيسكونتي–.

وقد جاء النقد في معظمه سلبيا ضد الفيلم ،ولكن ذلك لم يمنع بعض محبي –فيسكونتي– من أن يشيدوا بالفيلم. فها هو الناقد –تيشين– في –كراسات السينما – يعترف بقدرة المخرج في هذا الفيلم "إن فيلم فيسكونتي هو أولا وآخرا قصة حب. وهو فيلم يدفع مخرجه إلى احترام العمل الأدبي بحذافيره وعدم السماح بتعديل فيه إلا في حدود تبرز فيها محاسن الكتاب. فالميل إلى الحشو من شأنه أن يشوه جمال العمل الأصلي"[28]. والمخرج ومن خلال هذا من الذين لا يخلون بجمال النص الأصلي كما يفعل الكثير من المخرجين الذين يفرغون النص الأدبي من محتواه.

أما الناقد–ميشيل ماردور–فقد رأى في الفيلم لوحة جميلة حين يقول:"أحب فيلم الغريب لأننا نشاهد فيه عاصمة الجزائر على بعد كأنها لوحة زيتية رائعة. وقد وفق فيسكونتي في التغني بمناظر بلكور في أطيافها الحزينة، وبأرض الريف الحمراء، وسجن دولا كروا"[29]. كما تظهر مدينة –الجزائر – البيضاء بجمال بحرها ومناظرها الرائعة التي

عشقها–ميرسو– في الرواية وعبر عنها بكل حب. إنها المدينة التي أحبها –كامي– في الأصل. . حب شمسها. . وبحرها. . وجبالها. . لكنها ظلت في ذاكرته مدينة فرنسية.

لقد أبدع المخرج–فيسكونتي– في تصوير المناظر الجميلة وحتى في التقاط صورة –ميرسو– بكل دقة، رغم تعقيد الشخصية. ولكن الذي حدث أن الفيلم جاء أقل مستوى من أفلامه الأخرى. ولعل من الأسباب التي ساهمت في ذلك أن المخرج كان مقيدا بالرواية بنسبة مائة في المائة لتعليمات السيدة–كامي– التي لم تسمح واشترطت تحويل الرواية كما هي، ومنه فإن المخرج لم يتدخل في الفيلم فكان أن قدم رواية على الشاشة ولم يقدم فيلما سينمائيا لأنه بذلك لم ينتقل من الكلمة إلى الصورة ولم يخلق جمالا سينمائيا بل أدبيا.

ورغم أن الفيلم لم يحقق النجاح المنشود، إلا أنه يبقى من الأفلام المميزة في تاريخ السينما الجزائرية التي لم تر في إنتاج فيلم –الغريب– إلا اعترافا بهذا الكاتب الذي ظل جزائريا ولو أنه لم يرتبط بهذا البلد كما كان صديقه الشاعر–جون سيناك–. هذا الكاتب الذي قال عنه وزير التربية 1967 في مقاله– Camus vu par un Algérien–مؤكدا المقال بعنوان: Camus l'Algérien وقد خلص إلى أن –آلبير كامي–"يبقى بالنسبة إلينا كاتب كبير أو بالأحرى أسلوبي كبير، ولكن غريب"[30].

إن فيلم–الغريب–للمخرج–فيسكونتي– يبقى من الأعمال المتميزة في تاريخ السينما، من حيث تعاملها مع النصوص الأدبية. كما يبقى الفيلم ومن قبله الرواية من أكثر الأعمال قراءة واهتماما من طرف النقاد. كما يظل –آلبير كامي–من الروائيين الممتازين رغم كل مواقفه السلبية تجاه بعض القضايا.

الهوامش:

1– كامي، آلبير. أعراس. ت/جورج طرابيشي. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان. ص33

2-Marcel J. Mélançon. Albert Camus Analyse de sa pensée. Suisse Les Éditions Universitaires de Fribourg. 1976. -p6 .

3 – كامي، آلبير. الغريب. المكتبة الثقافية. بيروت. لبنان. 1982. ص07.

4 –المرجع نفسه. ص08.

5 –م ن. ص09.

6 – م ن. ص11.

7 – م ن. ص13

8 – م ن. ص22.

9 – م ن. ص29

10 – م ن. ص58

11 – م ن. ص59.

12 –م ن. ص62.

13 – م ن. ص67.

14 – م ن . ص79.

15 – م ن. ص93

16 – م ن. ص98.

17 – م ن. ص104.

18 – م ن. ص106.

19 – م ن. ص115.

20 – م ن. ص117.

21– Khodja, Hamid nacer. Albert Camus. Jean Sénac ou Le fils rebelle Paris. Méditerranée . 2000. p111

22– ibid, p112

23 – ibid, p113

24– ibid, p112

25 –الإنتاج السينمائي الجزائري. 1957–1974. وزارة الإعلام والثقافة. الجزائر. ص7.

26– 51-Marcel J. Mélançon. Albert Camus Analyse de sa pensée. p11

27 – المالح، نبيل. في حوار لي معه.

28 – الإنتاج السينمائي الجزائري. ص07.

29 – المرجع نفسه. ص07.

30 – Khodja, Hamid nacer p114.